OPEN ACCESS
Al-Qamar
ISSN (Online): 2664-4398
ISSN (Print): 2664-438X
www.alqamarjournal.com

الغزل العذري عند الشواعر عبر العصور

(Platonic Spinning of Poetry through the Ages)

Dr. Salma Shahida
Assistant Professor of Arabic, NUML Islamabad

Abstract

The platonic spinning is characterized by purity, chastity, transcendence in feelings, and great spiritual strength, but this life does not eliminate the woman as the second party in the experience of love, because this condemns the experience to perversion. The spinning is represented in three: the platonic spinning, the sensual or physical spinning, then the mystical spinning which expresses love towards the divine self. In this work the use of platonic spinning in different ages of poetry has been discussed. Moreover, the fact that how different categories of platonic spinning have added a magical essence in poetry, has also been under consideration.

Keywords: Platonic spinning, poetry, purity, woman, love

مقدمة

الغزل العذري ظاهرة من ظواهر الشعر العربي معبرة عن سلوك اجتماعي بين أبناء المجتمع، لا يحكمها الزمن أو التاريخ، بل تتحكم بها قوة العلاقة الوجدانية بين العشاق في أي زمن، ففي الحب العذري يتجه وجدان الرجل بدوافع الاتصال بالمرأة جاذبية روحية أكثر من الجاذبية الجنسية، وقد تسامت الثانية بسبب فشل الرجل فيها فهرب إلى الأولى لإيهام نفسه بحبه العذري، وسبل الاتصال بالمرأة تحده الخصائص العامة لنمط الحب وقوته الروحية أو الجسدية تبعاً لاختلاف التركيب النفسي للعاشق أو العاشقة، والنمط الاجتماعي – لاشك – له دور في توجيه الحب بفعل تأثيره على نفوس الناس ولكنه ليس كل شيء في تحديد نمطية العشق.[1] كما إن الغزل العذري يتسم بالصفاء والعفة

[1] حسن جبار محمد، الغزل في عصر صدر الاسلام (رسالة ماجستير، جامعة البصرة، 1988)، 31.

والسمو في المشاعر وقوة روحية كبيرة، ولكن هذه الحياة لا تلغي المرأة بوصفها الطرف الثاني في تجربة الحب، لأن هذا يحكم على التجربة بالشذوذ.

الغزل العذري في شعر شواعر العصر الجاهلي

مما لا شك فيه "أن المرأة تعجب بالرجل، ويستحوذ الرجل على مشاعرها وتصطنع من الوسائل ما يعز على اللبيب لاجتذابه وتتزين مرة وتتدلل مرة أخرى لاجتلابه ومع ذلك فهي حريصة اشد الحرص على أن يظل حبها في صمت لا يعلن عنه في حقبة ليس إلى اكتشافه من سبيل-"[2] واتسمت مجموعة من النصوص الغزلية لشعر الشواعر بعاطفة قوية تنم عن صدق الإحساس الذي خلف في قلب الشاعرة شوقاً ومحبة كبيرين دفعها إلى تفضيل المحبوب على الأهل وهذا ما نجده في قول هند بنت الخُس التي صرحت بأنها تفضل لقاء الحبيب على الأب لو خيرت بينهما، بعد أن أشادت بالحبيب وأعلنت شغفها به بصراحة. قالت :

أشمُّ كَنَصْلِ السيفِ جعدٌ مُرجَّلُ شُغْفتُ به لو كان شيءً مُدانيا
وأقسمُ لو خُيّرتُ بين لقائِهِ وبين أبي لاخترتُ أن لا أبا لِيا[3]

إن هذا النص واضح في تصوير مدى تعلق الشاعرة بمحبوبها وإعجابها به حتى فضلته على أبيها.وكذلك حال الاسدية التي كانت تعيش قصة حب كبيرة مع ابن عم لها. ولكن أباها وقف موقفاً متعنتاً من تزويجها إياه، واجبرها على الزواج من رجل آخر، فاشتد الوجد بالحبيب فأرسل يخبرها بذلك فأجابته:

حبيبي لا تَعْجَل لِتَفْهَمَ حُجَّتي كَفاني ما بي من بلاءٍ ومن جَهْدِ
ومن عَبراتٍ تَعتريني وزفْرَةٍ تكاد لها نفسي تَسيلُ من الوجْدِ
غَلَبتَ على نفسي جِهَاراً ولم أطق ولن خلافاً على أهلي بِهَزْلٍ ولا جِدّ
يمنعوني أن أموتَ بزَّعْمِهم فلا تَنسَ أن تأتي هناك فَتَلتَمِسْ
غداً خوف هذا العارِ في جَدَثٍ وحدي مكاني فتشْكُو ما تحمَلْتَ من جَهْدِ[4]

انه صراع الاختيار بين الحبيب والأهل الذي جعلها لا تستطيع أن تفرط بحبيبها، ولا أن تعارض أهلها لا بجد ولا بهزل، ومن ثمة كانت المعاناة التي عبرت عنها الشاعرة في أبياتها هذه. والشاعرة الجاهلية كأية امرأة كانت تناجي حبيبها مناجاة شجية تصور فيها وجدها ولعل قول ضاحية الهلالية التي أحبت وكان خير مثال على ذلك إذ قالت:

واني لأنوي القصدَ ثُمَ يرُدُّني عن القصدِ ميلاتُ الهوى فأميلُ
وما وجدُ مسجونٍ بصنعاءَ موثقٍ بساقِيه من حَبس الأمير كبولُ

[2] سعد اسماعيل شلبي، الاصول الفنية في الشعر الجاهلي (القاهرة: ،مكتبة غريب، ب.ت)، 318-

[3] عبد البديع صقر، شاعرات العرب، (الطبعة الأولى، المكتب الإسلامي، 1967)، 461.

[4] عبد أ. مهنا، معجم النساء الشاعرات (بيروت:دار الكتب العلمية، 1990)، 122-123.

وما ليلُ مولىً مُسْلَمٍ بحريرةٍ لهُ بعدما نامَ العيونُ عويلُ
بأكثرَ مني لوعةً يوم راعني فراق حبيبٍ ما إليهِ وصولُ[5]

ونلاحظ في غزل عدد من الشواعر أن عاطفة الحب ممزوجة بالحزن والألم الذي تعانيه وتعيشه من جراء الفراق والبعد عن الحبيب، ومن ذلك قول أم الضحاك المحاربية التي أنشدت الأبيات الآتية عندما طلقها زوجها الضبابي وقد أظهرت فيها الحب الممزوج بالحزن والأسى والحرمان، فقالت:

هل القلبُ إن لاقى الضَبابيَّ خالياً لدى الرَّكن أو عند الصَّفا مُتحرّجُ حديث
واعجلنا قُربُ الفِراقِ وبيننا كتنشيج المريضينِ مُزعجُ
حديثٌ لو أنّ اللحمَ يُشوى بِحَرَّهِ طرّيا أتى أصحابَهُ وهو مُنَضَجُ[6]

العزل العذري في شعر شواعر عصر صدر الإسلام

جاء الإسلام ثورة على جل ما تعارف عليه العرب من قيم وأخلاق، وعادات وتقاليد، وكان لابد أن تؤثر هذه الثورة بما جاءت به من عقيدة وفكر وممارسات بما تعنيه من نظرة جديدة راقية إلى الحياة في هذه الفئة من الناس الأكثر رهافة والأقوى إحساساً بإزاء ما يحدث وهم الشعراء.إن الإسلام هذب نفوس الشعراء فجعلهم يعبرون عما يشعرون به من عواطف تعبيراً حقيقياً طاهراً، فضلاً عن تغير نظرة الشعراء أنفسهم نحو المرأة، فبعد أن كانت غاية لإشباع غرائزهم أصبحت في ظل الإسلام قيمة إنسانية تُحكم التعامل معها ضوابط رفيعة وضعها الدين الحنيف – "إن انشغال الناس كافة بأمر هذه الدعوة الجديدة التي أذهلتهم بما تحمله من أفكار وقيم لم يألفوها من قبل، فضلاً عن الفتوحات الكثيرة التي شغلت العشاق وصرفتهم عن النسيب زمناً غير قصير، ثم تشدد بعض الخلفاء الراشدين وخاصة الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) الذي قيل انه أمر بجلد كل من شبب بامرأة"[7]. وهذا لا يعني ان عصر صدر الإسلام كان خالياً من الغزل بل كانت هناك قصائد ومقطوعات لشعراء مسلمين قيلت في أوقات مختلفة؛ فالإسلام بما جاء به من مباديء وقيم لم يحارب الغزل بل هذبه ووجهه الوجهة الصحيحة التي تتلاءم مع هذهِ المباديء والقيم، ولامية كعب بن زهير التي انشدها في حضرة رسول الله ﷺخير دليل على ما نزعم-[8] وقد وبخ الرسول (صلى الله عليه وسلم) من قتل صاحب حبيشة – وهو شاب من بني عامر، قتله المسلمون في البعثة التي أرسلها الرسول ﷺ بإمرة

[5]عبد أ. مهنا، معجم النساء الشاعرات، 158-

[6]عبد القادر محمد مايو، ترجمه؛ شاعرات العرب (دار القلم العربي: حلب، الطبعة الأولى، 1998)، 95-

[7]ابو فرج الاصبهاني، الأغاني، تحقيق- عبد الكريم الغرباوي وعبد العزيز مطر (بيروت: مؤسسة حبال ، ب.ت) 138/21-

[8] كعب بن زهير ،شرح؛ ديوان كعب بن زهير (القاهرة: مكتبة الخانجي، 1384هـ-1964م)، 6-

خالد بن الوليد – قائلاً: ما فيكم رجل رحيم[9]. وهذا الموقف يدل على رحمته (صلى الله عليه وسلم) بالعاشقين. إن شعراء الغزل في عصر صدر الإسلام كانوا طائفتين: طائفة انقادت في الدين الجديد لكنها لم تبرأ مما كان عالقاً من شوائب ما قبل الإسلام من انغماس في الملذات واشتعال الغريزة تجاه المرأة ومن ابرز أعلام هذه الطائفة حميد بن ثور وسحيم عبد بني الحساس، إذ اتسمت أشعارهم بالجرأة والصراحة والمجون. وثانية: انقادت إلى الحياة الجديدة فالتزم أفرادها بحدودها ومن ابرز أعلام هذه الطائفة حسان ابن ثابت وكعب بن زهير اللذان اتسم غزلهما بالعفة والالتزام على الرغم من قلتهِ.[10] ولم نعثر فيما رجعنا إليه من مصادر على نماذج للغزل العذري في هذا العصر للمرأة.

الغزل العذري في شعر شواعر عصر بني أمية

إن خفوت غرض الغزل لم يدم طويلاً فما لبث أن ازدهر في العصر الأموي ومن أسباب هذا الازدهار أن خلفاء بني أمية بعدما استقرت الدولة واستتب الأمر للخلافة أرادوا أن يبعدوا عنهم معارضيهم فأغدقوا عليهم الأموال الكثيرة لينشغلوا باللهو والغناء والابتعاد عن السياسة، فضلاً عن أن الجيل الذي عاش في زمن بني أمية جيل يختلف عن جيل الصحابة والتابعين من حيث الالتزام بتعاليم الإسلام، فانغمسوا في شيء من نواهيهِ.[11] لقد انقسم الباحثون على فريقين بشأن نشأة الغزل العذري ففريق يرى أن هذا الغزل لم يكن وليد تأثير الدين الإسلامي بل إن جذوره عميقة ترجع إلى عصر ما قبل الإسلام فالدكتور الحوفي يرى "أن الغزل العذري لم ينشأ في العصر الإسلامي ولم يصر فناً مستقلاً في العصر الإسلامي، وإنما كان فناً مستقلاً في العصر الجاهلي"[12]. وكذلك كان رأي الدكتور الكفراوي الذي يرى "أن أصحاب هذا الاتجاه لم يكونوا زهاداً في غزلهم، ولم يتركوا حبيباتهم زهداً، بل مرغمين نتيجة الحرمان، كما يرى أن قول القائل بان الغزل العذري ظهر نتيجة للدين الجديد، انه افتراء على هذا الغزل كما هو افتراء على الدين الإسلامي."[13] أما الفريق الثاني من الدارسين فيرى أن الغزل العذري كان نتيجة حتمية لهذه الدعوة الجديدة، وأن التصوف والزهد كان من الدوافع المهمة في بروز الغزل العذري.[14] وكان كذلك رأي الدكتور شكري فيصل إذ قال "انه لم يكن من الممكن أن يظهر هذا الغزل

[9] داؤد الانطاكي، تزيين الأسواق في أخبار العشاق(بيروت: دار حمد ومحيو،ب.ت)، 153/1.

[10] شكري فيصل، تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام (بيروت: دار العلم للملايين، 1959م)، 231-232.

[11] عمر بن أبي ربيعة،جميل بن معمر، الغزل تاريخه واعلامه الغزل تاريخه وأعلامه (بيروت: دار الثقافة: ب.ت)، 23-24.

[12] الدكتور احمد الحوفي، الغزل في العصر الجاهلي(القاهرة: الطبعة الثالثة، د.ت)، 181.

[13] محمد عبد العزيز الكفراوي، الشعر العربي بين الجمود والتطور (القاهرة: دار النهضة، 1969)، 59-60.

[14] طه حسين،حديث الأربعاء(مصر:دار المعارف، 1962)، 1: 185.

بقدسيته وطهارته قبل عصر بني أمية-"[15]ولعلنا لا نجانب الصواب إذا قلنا إن جذور هذا النوع من الغزل كانت موجودة في عصر ما قبل الإسلام لكنها قليلة متفرقة لم تشكل اتجاهاً عريضاً كما هو الحال في العصر الأموي، فضلاً عن أن شعر الغزل العذري إبان ذلك العصر كانت وراء نشأته وانتشاره دوافع مختلفة أشار إليها عدد من الباحثين-[16] وإذا بحثنا عن غزل الشواعر في هذا العصر لم نعثر الا على ابيات قليلة مبعثرة بين طيات الكتب، ولعل السبب في ذلك لا يرجع إلى امتناع المرأة عن البوح بمشاعرها او عدم الاهتمام بها؛ بل لأن المرأة مطبوعة على الاستحياء مجبولة على كتمان الهوى[17]. ولعل هذا ما دفع الجاحظ إلى القول "إن المرأة تحب اربعين سنة، وتقوى على كتمان ذلك، وتبغض يوماً واحداً فيظهر ذلك بوجهها ولسانها، والرجل يبغض اربعين سنة، يقوى على كتمان ذلك، وإن احب يوماً واحداً شهدت جوارحه-"[18]وما يؤكد هذا الكتمان قول ليلى العامرية:.

باح مجنونُ عامرٍ بهواهُ وكتمتُ الهوى فمتُ بوجدي

فإذا كان في القيامةِ نُودي من قتيلُ الهوى تقدّمتُ وحدي[19]

وتصرح في موضع أخر بأنها هي المجنونة في حب المجنون فتشبه حالها بحالهِ، ولكنها تختلف عنه في شيء واحد وهو كتمان حبها له في حين انه باح بهذا الحب، قالت:

لم يكن المجنون في حال إلا وقد كنتُ كما كانا

وإنّني قد ذُبتُ كِتمانا لكنه باحَ بسّرِ الهوى[20]

وأما ليلى الاخيلية فتتحدث عن امتناعها وعفتها، إذ تقول:

وعنهُ عَفَا ربي وأحسَنَ حفظهُ عزيزٌ علينا حاجةٌ لا ينالها[21]

وقد يكون السبب في الهجر وانقطاع الوصل الخوف من السلطان، وهذا ما حصل لرجل من بني عجل أحبَّ ابنة عم له، وكان قد توجه إلى حرب الازارقة مع المهلب، فكتبت اليه تستزيره فاعتذر اليها بخوفه من عقوبة الامير، فما كان منها الا أن كتبت له:

[15]تطور الغزل بين الجاهلية والاسلام 284-

[16]المصدر نفسه 194-195-

[17]د. احمد الحوفي، المرأة في الشعر الجاهلي (القاهرة: دار الفكر العربي، 1963)، 654-

[18]الجاحظ، المحاسن والأضداد ،تحقيق فوزي عطوي (بيروت: المطبعة الشركة اللبنانية للكتاب،، ب ت)، 137-

[19]الاصبهاني، الأغاني، 2: 6-

[20]محمد غنيمي هلال، ليلى والمجنون (حلب: دار القلم العربي،الطبعة الأولى)، 38-

[21]الانطاكي،تزيين الاسواق، 32-

ليس المحب الذي يخشى العقاب ولوبل كانت عقوبة في إلفهِ النّارُ

المحب الذي لاشيء يمنعه او تستِتِرَّ ومن يهوى به الدّارُ[22]

فما كان منه الا أن ارتحل اليها، بعد أن اثار هذان البيتان حفيظته، تاركاً واجبهُ غير عابئ بما سوف يلاقي من الامير، وبعد أن تمتع بلقائها، عاد فاعتذر إلى الامير بما كان، فعفا عنه. ولعل من اجمل ما قيل بيتين لامرأة تخاطب زوجها متوددة اليه، ومؤكدة حسن تبعلها له:

فصار لك مني النصحُ ما دمت حيةً وردٌ كماءٍ المزنِ غير مَشُوبِ

فآخر شيء أنت لي مرقدي واول شيء انت عندي هبوبي[23]

إن من مميزات هذا الغزل المرارة والحرمان والالم والشكوى، فضلاً عن التصريح بالحب والاخلاص فيه وصدق العواطف ونبلها "وهذا الحب يتصف بالمرارة والديمومة والعفة وهي الاقاليم الثلاثة التي يتألف منها جوهر الغزل العذري وعليها تقوم ذاته – أن بجمع هذهِ الصفات جميعاً في نفس واحده، ثم يدعوها تئن وتشكو وتتضرع وتتلوى..... وليس الغزل العذري الا اعتصاراً لهذه الصراحة وهذا الانين"[24]. وقد يكون في امكاننا أن نضيف إلى ما سبق من سمات: الصراحة عن مشاعرها في البوح والتفصيل في القول.

الغزل العذري في شعر شواعر العصر العباسي

إذا رجعنا الى العصر العباسي لوجدنا "إن الغزل العفيف شجرة نبتت جذورها في الجاهلية، ثم ترعرعت وازدهرت في العصر الاموي واستمرت في العصر العباسي"[25]. وإن انغماس اكثر الناس ولاسيما الشعراء منهم في القرن الثاني للهجرة في المجون ومفاتن الحضارة الجديدة، لا يعني انتفاء العفة واختفاءها نهائياً؛ اذ لابد من أن يوجد في كل مجتمع اهل الخير والشر، واهل الزهد والمجان واهل الطهر والزناة؛ فمثلما كان يشيع الغزل العذري وقصص الحب والغرام في بوادي الحجاز وعند فقهاء مكة والمدينة كان عمر بن ابي ربيعة واضرابه من الشعراء يخرجون على الناس بغزلهم الفاحش الصريح.[26] ومن اكثر من اشتهرن بالغزل العذري من الحرائر علية بنت المهدي "وكانت من اكمل النساء عقلاً واحسنهن ديناً ونزاهة"[27]. وهي رقيقة الشعر لطيفة المعنى حسنة مجاري الكلام ولها ألحان حسان. وهي وإن استطاعت أن تنفس بشعرها الغزلي عن مشاعرها وعواطفها الفياضة فانها لم تؤت القدرة

[22] ابو علي إسماعيل القالي البغدادي، الامالي(بيروت: دار الفكر، ب ت)، 2: 30.

[23] ابن طيفور، بلاغات النساء (منشورات مكتبة بصرتي، ب ت)، 142.

[24] شكري فيصل، تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام (بيروت: دار العلم للملايين، 1959م)، 288.

[25] حسان أبي رحاب، الغزل عند العرب(القاهرة: مطبعة مصر، 1947)، 205.

[26] يوسف حسين البكار، اتجاهات الغزل في القرن الثاني الهجري (مصر دار المعارف ، 1971م)، 267.

[27] ابو بكر محمد بن يحيى الصولي، أشعار أولاد الخلفاء من كتاب الأوراق (بيروت: المطبعة: دار المسيرة، ب ت)، 55.

على اظهارها صريحة واضحة، فكانت اشعارها تصدر مثقلة بالالام والحسرات مفعمة بالكتمان، وكثيراً ما كانت تخرجها صرخات مدوية من مثل قولها:

كتمتُ اسْمَ الحبيبِ من العبادِ وردّدتُ الصبابةَ في فؤادي
لعلّي باسم من أَهوَى أُنادِي فَوَا شَوقِي إلى بلدِ خلِي[28]

وقالت معبرة عن كتمانها الهوى وملمحة إلى ما قاسته فيه:

يا ذا الذَّي أَكُتُمُ حبَّيهِ ولستُ من خوفٍ أُسمّيهِ
لم يدرِ ما بِي هواهُ وَلم يعلمْ بما قاسيْتُهُ فيهِ[29]

ولقد سمحت لقلبها أن يبوح بالوجد والحب ما دام حديث قلبها غير مسموع من احد الا انها تمنع عينها عن الافصاح بالبكاء لئلا يفتضح امرها، فتقول:

باحَ بالوجدِ قلبكَ المستهامُ وَجَرَتْ في عِظامِكَ الأَسْقامُ
يومَ لا يملكُ البُكاءَ أخو الـ ـشَّوقِ فَيُشفى ولا يُرَدُّ السَّلامُ[30]

واكثرت علية في شعرها من الكناية عمن تحب بفتاة تصرح باسمها حيناً وتخفيه أحياناً اخرى، ولعل السبب في لجوئها إلى الكناية دون التصريح يعود إلى انها اخت الخليفة، والى أن من كانت تحبه خادم فكنت عنه كي لا يعرفه احد؛ فالمجتمع لا يرضى لاخت الخليفة أن تحب من هو ليس من طبقتها الاجتماعية. كما لم تكن تريد أن تلفت انظار الاخرين إلى الشخص الذي تحبه او الذي تعنيه في اشعارها، "وكانت تكاتب بالاشعار خادمين يُقال لاحدهما طل، وتكني عنه بظل؛ والاخر رشا، وتكني عنه بزينب، على انهما جاريتين"[31]. ولعلها قد حاكت في استخدامها اسماء الاناث الشعراء الرجال في ترداد اسماء مشهورة يتغزلون بها على الحقيقة او كناية عن يحبون او هي رموز الغزل يحكون من خلالها تجربة شعورية متخيلة. فمما صرحت به من اسماء الاناث قولها:

وجدَ الفؤادُ بزْينبا وَجْداً شديداً مُتْعِبا
أَصبحتُ من وجدٍ بِها أُدْعَى شقيّاً مُنْصَبا
ولقد كنيتُ عن اسمها عمداً لكي لا تَغْضَبا
وجعلتُ زينبَ سُتْرَةً وأتيتُ أمراً مُعْجَبا

[28] الصولي ،اشعار اولاد الخلفاء، 65.

[29] الصولي ،اشعار اولاد الخلفاء، 71.

[30] الصولي ،اشعار اولاد الخلفاء، 65.

[31] جلال الدين السيوطي، نزهة الجلساء في أشعار النساء، تحقيق. صلاح الدين المنجد (بيروت: دار المكشوف،1958)، 84.

قالت وقد عزّ الوصا لُ ولم أجدْ لي مَذْهَبا
والله لا نِلْتَ المنّو دَّة او تَنالَ الكْوكَبا[32]

وقالت في موضع آخر مكنية عن طل بـ (ظل):[33]

أيا سَرْوَةَ البّستانِ طالَ تَشوُّقي فهلْ لي إلى ظلِّ لديك سبيلُ
متى يَلتقي من ليس يُقضى روجُهُ وليس لما يُقْضى اليه دُخولُ

وقالت مكنية عمن تحب باسم سلمى:

أليستْ سُليمى تحتَ سقفٍ يُكنُّها وإيَّاي هذا في الهوَى لي نافعُ
وَيَلْبَسُها اللّيْلُ البَهيمُ اذا دَجَى وَتُبْصِرُ ضَوْءَ الفَجْرِ والفَجْرُ ساطِعٌ أطأهُ
تَدُوسُ بِساطاً قد أراهُ وأنثْني بِرِجْلي كُلُّ ذا لي شَافعِ[34]

إن هذه غاية القناعة في الحب، وانها ابيات تقترب من شعر العذريين؛ فهي ترى السعادة في أن يكنها مع حبيبها سقف واحد ويلبسهما الليل البهيم، ويبصران ضوء الفجر ويدوسان البساط، انها قانعة من هذا الحب بهذه اللقيا وهي اصل السعادة لديها.وقد توصلت علية في شعرها الغزلي إلى القول في احوال الحب واحكامه وبيان احواله من وجهة نظر شاعرة تعبر عن المشاعر والمواجد تارة وتخاطبها تارة اخرى؛ فكانت ترى أن الحب انما بني على الجور، فان كان المعشوق منصفا فقد كان غليظ الطبع، وهي لا ترى عيبا في ذلة المحب؛ ذلك أن تنازله وتذلله لمحبوبه هو المفتاح المؤدي إلى الفرج، وترى أن قليلاً من الحب الخالص خير من كثير ممزوج بالاسى والالم والاحزان، فقالت:

بُني الحُبُّ على الجورِ فَلو أنصفَ المَعْشُوقُ فيه لسَمَجْ
ليس يستحْسنُ في وصفِ الهوى وقليلُ عاشقٌ يعرف تأليفَ الحُججْ
الحُبِّ صرفٌ خالصٌ لك خَيرٌ من كَثيرٍ قَدْ مُزِجْ[35]

وتقول، معللة التذلل للمحبوب بانه سبيل إلى العز والارتقاء في الحب:

أذلُّ لمنْ أهوى لأُدْركَ عزَّةً وكم عِزَّةً قد نالها المرْءُ بالذُّلِّ
فلو كُنْتُ اسْلُوهُ لِسُوءِ فَعَالِهِ لقد كان في إقْصائهِ لي ما يُسْلِي[36]

الا انها لا تلبث أن تعود إلى واقعها مشدودة اليه مكبلة باليأس والقنوط وتقول:

---

[32] الاصبهاني، الأغاني، 2 175/10.

[33] الصولي ،اشعار اولاد الخلفاء، 61-62.

[34] الصولي ،اشعار اولاد الخلفاء، 69.

[35] الصولي ،اشعار اولاد الخلفاء، 66.

[36] الصولي ،اشعار اولاد الخلفاء، 75.

الشوقُ بين جوانحي يَتَرَدَّدُ وَدُموعُ عيني تَسْتَهِلُّ وتَنْفُدُ
إنّي لأَطْمَعُ ثُمَّ أنْهَضُ بالمُنَى واليَأسُ يَجْذبُني إلَيْهِ فأقْعُدُ[37]

وثمة شاعرة أخرى من بنات السلطان هي خديجة بنت المأمون، التي قيل انها كانت تقلد عمتها (علية بنت المهدي) في التشبيب والتلحين، ونسب اليها ما نسب إلى عمتها من حبها لخادم من خدم ابيها، فقالت فيه الشعر وتمنت أن تكون حماما له او باشقا يفعل بها ما يشاء، مشبهة اياه بالرشا ومضفية عليه صفات المرأة من ثقل الارداف ودقة الخصر على عادة الشعراء في التغزل بالنساء. أي على سبيل تقليد شعر الغزل عند الرجال:

بالله قولوا لي ذا الرشا المثقلُ الردفِ الهضيمُ الحشا
اظرفُ ما كان اذا ما صحا واملحُ الناس اذا ما انتشى
وقد بنى برجَ حمامٍ له أرسلَ فيه طائراً مُرْعَشا
يا ليتني كنت حماماً له او باشقاً يفعلُ بي ما يشا
لو لبس القوهيّ من رقهِ أوجعه القوهيُّ او خدَّشا[38]

اما ما عرف للجواري من غزل فاكثره عبارة عن مقطعات ومطارحات تلقى في مجلس من مجالس اللهو والادب او المراسلات بينهن وبين محبيهن، وتكون في الغالب مجالاً لاظهار البراعة في النظم والسرعة في البديهة. فهذه دنانيرجارية محمد بن كناسة "وقد كان لعمر بن كناسة صديق يكنى ابا الشعثاء، وكان عفيفاً، مزاحاً، وكان – ابا الشعثاء – يدخل إلى ابي كناسة يسمع غناء جاريته، ويعرض لها بانه يهواها، فقالت فيه – دنانير – الابيات الآتية":

لأَبي الشعثاءِ حبٌّ ظاهرٌ ليس فيه مطعنٌ للمُتَّهِمْ
يا فؤادي فازْدجرعنه ويا عبثَ الحبِّ به فأقعُد وقمْ
راقني منه كلامٌ فاتنٌ ورسالاتُ المحبين الكَلِمْ
قانصُ تأمَنْهُ غِزلانُهُ مثل ما تأمن غزلان الحَرَمْ
صلِّ إن احببتَ أن تعطى المنى يا ابا الشعثاءِ للهِ وصُمْ
ثم ميعادُكَ يومَ الحشرِ في جنة الخلدِ إن الله رَحِمْ
حيث ألقاكَ غلاماً يافعاً ناشئاً قد كملت فيه النِعَمْ[39]

[37] الصولي ،اشعار اولاد الخلفاء، 75.

[38] السيوطى، نزهة الجلساء في اشعار النساء، 54.

[39] ابو فرج الاصبهاني، الإماء الشواعر، تحقيق. جليل العطية (بيروت: المطبعة: دار النضال، الطبعة الأولى)، 54-55.

وثمة شاعرة اخرى وهي فضل الشاعرة جارية المتوكل كتبت إلى سعيد بن حُميد ايام كانت بينهما محبة وتواصل، هذه الابيات:

وعيشكَ لو صَرّحتُ باسمِك في الهوى لاقصرتُ عن أشياءَ في الهَزْلِ والجدّ وذاك
ولكنني أُبدي لهذا مودتي واخلو فيك بالبثِ والوجدِ
مخافةَ أن يُغرَى بِنَا قولُ كاشحٍ عدّوٍ فيسعى بالوصالِ إلى الصَّدِ[40]

وتغزلت على لسان المعتمد جارية اسمها (علم الحسن)؛ اذ عُرضت على المعتمد جارية تباع في خلافة المتوكل يقال لها (علم الحسن) مغنية، حسنة الوجه، وهو يومئذ غلام حديث السن واخرجها مولاها إلى ابن الاغلب، فبيعت هناك فلما ولي المعتمد الخلافة سأل عنها، وقد ذكرها واعلم انها بيعت بالقيروان واولدها سيدها، فقال لفضل الشاعرة، قولي فيها شيئاً! فقالت:

عَلَمَ الجمالِ تركتني في الحُبِّ اشهر من عَلَمْ
ونصبتني يا مُنيتي غَرَضَ المظَنّة والتُّهَمْ
فارقِتِني بعد الدنّو "م" فصرتِ عندي كالحُلمْ
فلو أن نفسي فارقتْ جسمي لفقدك لم تُلَمْ
ما كان ضرّكِ لو وصلـ ـتِ فخفَ عن قلبي الألمْ
برسالة تُهدينها او زورةٍ تحت الظُّلَمْ
أو لا فطيفٌ في المنا مِ فلا اقلَّ من اللّمَمْ
صلةُ المُحبّ حبيبه الله يعلمهُ كَرَمْ[41]

ولو تأملنا الابيات السابقة لوجدنا العاطفة فيها غير قوية والخيال محدود؛ ولعل السبب في ذلك أن الشاعرة لم تعبر عن مشاعرها هي، بل عبرت عن مشاعر رجل، والتعبير عن مشاعر الاخرين يختلف بالتأكيد عن التعبير عن المشاعر الذاتية فكيف اذا ما كان القائل امرأة والمقول على لسانه رجل.اما عريب زعيمة الغناء في العصر العباسي فضلاً عن كونها ناقدة بارعة صريحة في قولها تدعم الحجة بالحجة ويؤخذ برأيها دليلاً قاطعاً[42]. فما رواه ابن الفرج الاصبهاني عنها قوله "حدثني محمد بن يزيد ويحيى بن علي قالا: حدثنا حماد بن اسحاق الموصلي قال: قال لي ابي: ما رأيت امرأة قط احسن وجهاً وأدباً وغناءً وشعراً وضرباً ولعباً بالشطرنج والنرد من عَريب! وما تشاء أن تجد خصلة، حسنة، ظريفةً، بارعةً في

[40] الاصبهاني ،الإماء الشواعر، 77ـ

[41] الاصبهاني ،الإماء الشواعر، 62-63ـ

[42] علاف عبد الكريم، قيان بغداد في العصر العباسي والعثماني والأخير (بغداد: مطبعة دار التضامن)، 103ـ

امرأة الا وجدتها فيها"[43]. وتغزلت على لسان المتوكل باحدى جواريه (قبيحة) فقد مرضت قبيحة فقال المتوكل لعريب قولي في علة قبيحة شيئاً وغني فيه، ولكن قولك الشعر على لساني فانشأت تقول:

بثت قبيحةُ في قلبي لها حُرقا وبدّلت مقلتي من نومِها أرقا
ما ذاك الا لشكواها فقد عطفتْ قلبي على كل شاكٍ بعدها شَفَقا
كأنها زهرةٌ بيضاءُ قد ذبَلَتَ أو نرجسٌ مِسِكٌ من طيبها عبقا
إنّي لأرحمُ من حُبي لها –سَلِمت من كلِّ حادثةٍ – يا قومُ من عشقا؟[44]

ليس من شك في أن الشاعرة نجحت في أن تعبر عن عواطف الخليفة بدليل طلبه منها أن تتحدث على لسانه معبرة عن ذلك بألفاظ سهلة ومعان واضحة قريبة عبر تشبيهها حال قبيحة في مرضها بزهرة بيضاء ذابلة وإن كان عطرها ما زال يعبق في الجو. وانشدت هذا الشعر امام قبيحة، فقالت لها قبيحة فاجيبيه عني فقالت:

يا سيدي انت حقاً سُمْتني الأرقا وأنت علّمتَ قلبي الوجدَ والحرقا! لكن على
لولاكَ لم أتألمْ عِلةً ابداً كَبدي أسرفتَ فاحترقا!
إذا شكوت إليه الوجدَ كذّبني وإن شكا قال قلبي خفيةً: صَدَقا!

ولو قارنا بين النصين لوجدنا أن هناك فرقاً بين التعبير عن مشاعر الآخرين والتعبير عن المشاعر الخاصة، فالبوح بما يعتمل في الذات اصدق وانضج من الحديث عما يمكن أن يكون في دواخل الاخرين، ويتضح ذلك من طبيعة ما يحسه المتلقي من حرارة التجربة الشعورية وصدق العاطفة ونضج الانفعال.وقد عشقت عريب صالح المنذري الخادم وتزوجته سراً فوجهه به المتوكل إلى مكان بعيد في حاجة له فقالت عريب فيه:

اما الحبيبُ فقد مضى بالرغمِ منّي لا الرِّضا
أخطأتُ في تركي لمن لم القَ منهُ عِوضا
لبعدِه عن ناظري صرتُ بعيشي عرضا[45]

ولعريب ابيات في الشعر قالتها على البديهة في مجالس الانس والطرب، إن دلت على شيء فإنما تدل على أن الشعر لم يكن ليستعصي عليها حين تريده، قالت:

اشكو إلى الله ما ألقى من الكمدِ حسبي بربي ولا اشكو إلى احدِ
اين الزمان الذي قد كنتُ ناعمةً في ظله بدنوّي منك يا سيدي
وأسال الله يوماً منك يُفرحني فقد كحلت جفون العين بالسُّهدِ
شوقاً اليك وما تدري بما لقيت نفسي عليكَ وما بالقلب من كمدِ[46]

[43] الاصبهاني، الأغاني، 21: 54ـ

[44] الاصبهاني ،الإماء الشواعر، 141ـ

[45] الاصبهاني ،الإماء الشواعر، 138ـ

والشاعرة هنا تلجأ إلى الله سبحانه وتعالى على طريقة شعراء الغزل العذري في لجوئهم اليه جل وعلا واستعانتهم به على بلواهم، تشكو اليه ما تلاقي من كمد، تسأله لقيا المحبوب. وثمة شاعرة اخرى هي ستيرة العُصَيْبّة قالت تتشوق إلى من أسمتهُ بكراً:

ونادى بالتّرحُّلِ بعض صحبي فرُحْتُ ومُقْلتي غرقى بِمَاها
فراحو والشَّقِيُّ له دُيونٌ واشيا من حوائجَ ما قضاها
فأرخيتُ العِمامةَ دون صحبي على عيني وقلتُ جرى قذاها
ومالي حاجَةٌ إلا بِبَكرٍ وما ذنبي على احدٍ سِواها
فقالوا من ضراري كيف بَكْرٌ وكيفَ تراكَ تَرجُو أن تراها
فقلت الله حَمَّ فِراقَ بَكْرٍ فأرجو أن يَحُمَّ لنا لِقاها[47].

فالشاعرة تعبر عن عواطفها ومشاعرها ومعاناتها في الحب عبر موقف بعينه مرت به موظفة الحوار أسلوباً فنياً في نصها بصيغة (فقالوا ... فقلت ...) لتنقل لنا ما دار بين صحبها وبينها من سؤال وجواب عن بكر هذا.وقالت في موضع آخر: انها رأت خيال الحبيب في نومها فحيا الجميع ولم يسلّم عليها:

الَمَّ خيالُ طيبةَ اجنبيّا فحيّا الرَكْبَ دُوني والمطيّا
لِما حَييتهُم يا طَيْفُ دوني وأنْتَ أحَبُّهُم شخصاً إليّا
الَمَّ بنا فَسَلَّمَ ثُمَّ وَلّى على الهجَّادِ تسليما خَفِيًّا
فلما أن كشَفْتُ غِطَاءَ رأسي اذا انا لا ارى إلا النّضِيًّا
وأنيقنا الثّلاثَ مُلَقَّياتٍ على متْنِ الطريقِ وصاحِبيّا
وَزُرقاً بالجَفِيرِ مُنشَّبات وشَوْحَطَةً تَرِنُّ ومشرَفيّا
فكَلّفَنَا سُراها أن رحلنا واحثَثْنا الأمِيرَ العامِريّا[48]

وهذهِ جارية اخرى تردد اناتها وتبدي زفراتها بين جمع من النساء كنَّ يبكين لبكائها، وكان هارون الرشيد في تلك اللحظات يتفقد احوال الرعية، فلما سمع الانات والزفرات طلب من احد خدمه أن يدنو من البابِ ليسمع ما تقول، فحفظ الخادم من شعرها هذه الابيات، التي تقول فيها:

هل أرى وجه حبيبي شفني بعد فقدانيه افراط الجزع
قد يرى شوقي اليه اعظمي وبلى قلبي هواه وفرع
ليت دهراً مرَّ والقلب به جذل العيش حلو قد رجع

[46] سهام الفريح، الجواري والشعر في العصر العباسي الأول (شركة الربيعان للنشر والتوزيع، 1981) 180-181.

[47] بشير يموت ،شاعرات العرب، 225.

[48] عبد البديع صقر ،شاعرات العرب، 156.

وعفت أثارهُ منه فيا ليت شعري ما بهِ صنع
فقد تمسكت على وجدي به بجميل الصبر لو كان نفع[49]

إن الشاعرة جاءت بالفاظ مؤثرة في نفس المتلقي وذلك من خلال ايرادها داخل هذهِ القطعة مثل (يرى، وبلى، وفزع، وجزع، جذل العيش، ووجدي). كما انها عبرت عن مشاعرها بصدق في الاحاسيس والتجربة الشعورية.وهذه تيماء جارية العباس بن خازم النهشلي، قالت في مولاها حين خرج إلى الشام، وكان بها مشغوفا:

تفديك تيما من سوءِ تحاذِرهُ فأنت مهجتُها والسمعُ والبصرُ
لئن رحلتَ فقد أبقيْتَ لي حزناً لم يبقَ لي معه في لذّةٍ وطرُ
فهل تذكر عهدي في المغيب كما قد شفّني الهمُّ والأحزانُ والفكرُ[50]

فهي تؤكد عبر اسلوب الخطاب لسيدها – حبيبها – شغفها به وحزنها لفراقه حتى سالته إن كان يشعر بما تشعر به من الم وحزن لفراقه.اما محبوبة جارية المتوكل فقد قال علي بن الجهم: كنت يوماً بحضرة المتوكل اذ دفع إلى محبوبة تفاحة مُغلفة بغالية، فقبلتها وانصرفت عن حضرته، ثم خرجت جارية لها ومعها رقعة فدفعتها إلى المتوكل، فقرأها وضحك، ثم رمى بالرقعة الينا فاذا فيها:

يا طيبَ تفّاحةٍ خلوتُ بها تُشعِلُ نارَ الهوى على كبدي
ابكي اليها واشتكي دَنفي وما أُلاقي من شدّةِ الكمدِ
لو أن تفاحةً بكت لبكتْ من رجفتي هذه التي بيدي
إن كنتِ لا تعلمين ما لَقيتْ نفسي فمصداقُ ذاك في جسدي ليس
فان تأملته علمتِ بان لِخلْقٍ عليه من جَلَدِ![51]

استطاعت الشاعرة في هذه الابيات أن تحكي ما اثارته التفاحة في نفسها من حزن وكمد، حتى انها خاطبتها منبهة اياها إلى ما تعانيه، حتى انعكس على جسدها هزالاً وضعفاً وما ذاك الا من اثر الهوى في نفسها. ليؤكد ذلك ما ترمز اليه التفاحة في الذاكرة المعرفية – الشعبية العربية – بل التراث الانساني من هوى ورغبة.ومما روي في اطار الكلام على سرعة البديهة مما له صلة بموضوعنا قول علي بن يحيى المنجم: قال المتوكل لعلي بن الجهم: اني دخلت إلى قبيحة الساعة فوجدتها قد كتبت اسمي على خدّها بغالية، فوا الله ما رأيت شيئاً احسن من سواد تلك الغالية على بياض ذلك الخد، فقل في هذا شيئاً. قال: وكانت محبوبة جالسة من وراء الستارة تسمع الكلام، فالى أن دُعي لعلي بالدواة والدَّرجِ واخذ يفكر قالت على البديهة:

[49] واجدة الاطرقجي، المرأة في أدب العصر العباسي (العراق : منشورات وزارة الثقافة والإعلام، 1981)، 323.

[50] الاصبهاني ،الإماء الشواعر، 85.

[51] جلال الدين السيوطي، لمستظرف من أخبار الجواري، تحقيق. صلاح الدين المنجد(بيروت: دار الكتاب الجديد، 1976)، 64.

وكاتبةٍ بالمسكِ في الخدِّ جعفراً بنفسي مخَطُّ المسكِ من حيث أثَّرا
لئن كتبتْ في الخدِ سطراً بِكفِّها فيا من لقد أودعتْ قلبي من الحبِّ أسطُرا
لمملوكِ لِمُلْكِ يمينهِ مطِيعٍ له فيما أسرَّ واظهرَا
ويا مَنْ مُناها في السريرةِ جعفرُ سقى الله من سُقيا ثناياك جعفرا[52]

اما قرة العين المعتصمية فتقول ابياتاً تتود بها إلى حبيبها الذي يبدو انه قد هجرها، فتحاول أن تخفف من غضبه عليها، وأن لا يتركها؛ فاذا كان لا بد الهجر؛ فان هذا الهجر سوف يكون سبباً من اسباب موتها. فقالت:

أنظر إليَّ بعينِ الصفح عن زَلَلي لا تتْرَكَنّي من أمري على وَجَلِ
روحي وروحك مقرونان في قَرَنِ فكيف أهْجُرُ من في هَجْرِه أجلي؟[53]

انها تطلب من المحبوب الصفح والغفران نتيجة زلل وقعت به، ولنلحظ توظيف الشاعرة لاسلوب الانشاء (الامر، والنهي، والاستفهام) لتأكيد شعورها بالندم على ما قامت به.وكتبت عنان جارية الناطقي على منديل-[54] وجهت به إلى ابي نواس، وكانت تحبه: قالت:

أما يحسن من أحسن أن يغضبَ أن يرضى
أما يرضى بان صِرتُ على الأرضِ له ارضا[55]

خلاصة البحث

يتميز الغزل العذري بالنقاء والعفة والتعالي في المشاعر والقوة الروحانية، لكنه لا يعني أن دور المرأة كطرف ثان للحب انتهى، حيث أن هذا يترتب عليه الفساد عمليا. يتمثل الغزل في ثلاث: الغزل العذري، والغزل الحسي ثم الغزل الغامض الذي ينشد الحب للذات الإلهية. نوقش استخدام الغزل العذري في عصور مختلفة من الشعر والجوهر السحري الذي أضافه في هذا المستند.

---

[52]السيوطي، لمستظرف من أخبار الجواري، 64-

[53]السيوطي، لمستظرف من أخبار الجواري، 58-59-

[54]لقد عبرت الشواعر عما يدور في اذهانهن باحلى الشعر وقد كتبن على الفصوص والتفاح والقناني والاقداح وفي ذيول الاقمصة والاعلام وطُرزِ الاردية والكمام والقلانس والكرازن والعصائب والوقايات وعلى المناديل والوسائد والمخادّ والمقاعد والمناص والخلل والاسِرّة والتكك ... والنعال السندية ... وعلى الجباة والطُّرَر وعلى الخدود بالغالية والعنبر وعلى الوطأة الوشاح ... ويكتبن احياناً بالحناء في الوطأة والاقدام والراح او يكتبنَّ بالغالية والعنبر على الخد والجباة وعلى النعال بالذهب والفضة. ينظر: (الموشى للوشاء 242-243، وينظر: المرأة في ادب العصر العباسي 273) وقد كان اغلب هذهِ النقوش غزلاً عذرياً. وللاطلاع على المزيد ما نقشته الشواعر على حاجاتهن الخاصة (ينظر: الموشى 252 532 254 256 857 259 262 264 273 275 277 289).

[55]ابو حبيب الطيب محمد الوشاء،الموشى أو (الظرف والظرفاء) (بيروت: دار صادر، 1385هـ-1965م)، 264-